الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي

في القرنين السادس عشر والسابع عشر

الدكتور محمد عارف الكيالى

نعتقد ان علماء التاريخ سيرحبون جدا عندما تختلط دراساتهم التاريخية لاى حدث، بالعوامل والاسباب الاقتصادية له. ورغم اننا لن نذهب ونتحو منحى الاخرين فى اعتبار العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد فى تفسير التاريخ . لكنه بالمقابل يبقى عاملا عريضا وكبيرا ولا يمكن تجاهله فى اية دراسة جادة وموضوعية .

والاستعمار كظاهرة اقتصادية سياسية استيطانية، وبشكليه القديم والحديث، مهما ادعى اصحابه ومؤيدوه من ان غرضه الاساسي كان دينيا تبشيريا أو ثقافيا تعليميا او حضاريا فانه فى التحليل الأخير خارج كل ذلك. انه تحويل للريع وفائض القيمة من الاطراف الى المركز عبر آليات السيطرة المنظمة والمدعمة بالقوة العسكرية والاعمال الهمجية الوحشية. والاستعمار البرتغالى للخليج العربى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر لا يخرج عن هذا الاطار.

ولكى يبرر الاستعمار نهبه هذا فلا بد ان يستخدم ويستند على ثقافة معينة يدعم بها توجهاته. فلقد استغل العواطف البريئة لدى الجماهير

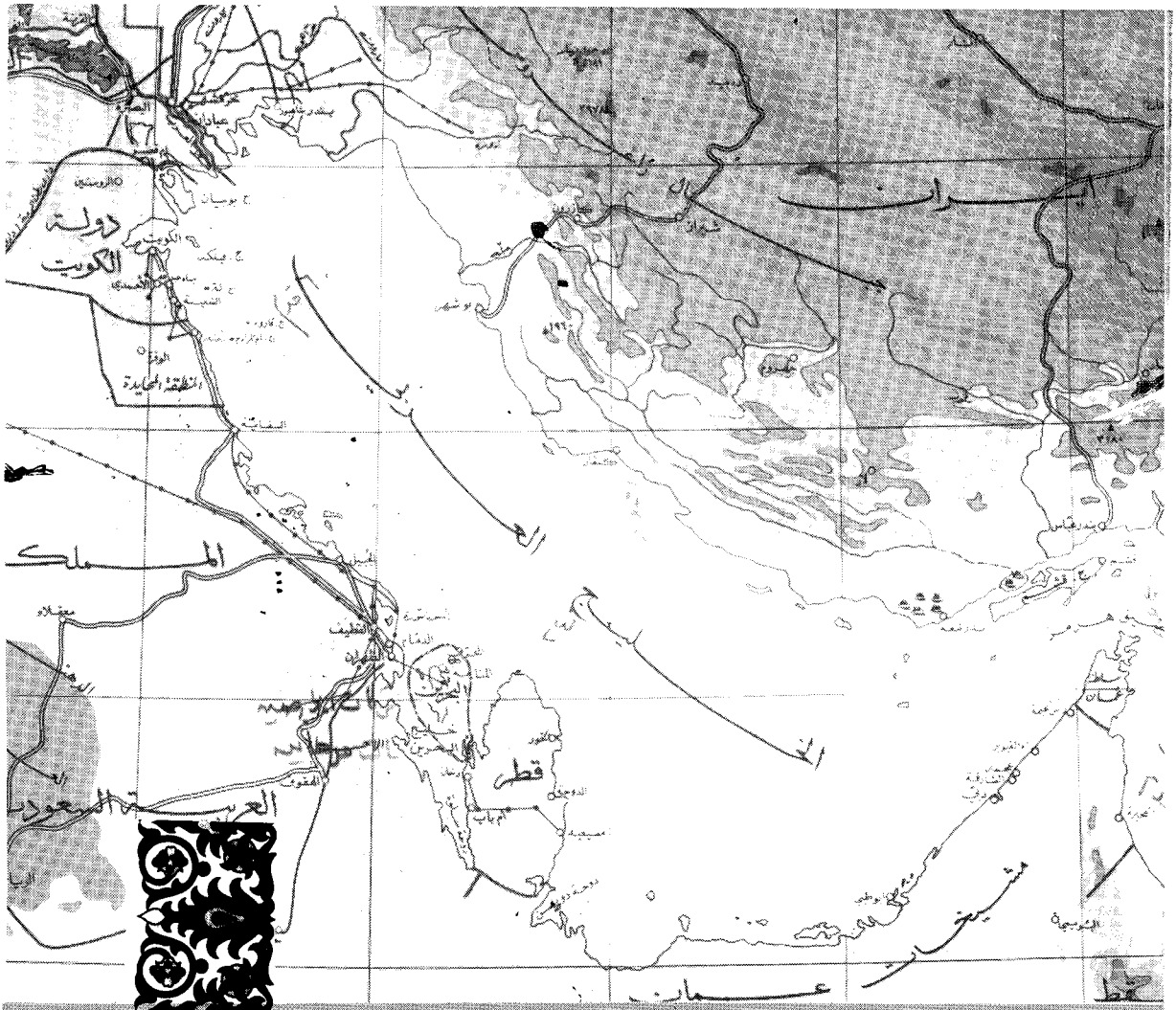

والعامة من الناس تارة باسم الدين وتارة باسم الثأر.. من اجل ان يغطى اهتماماته بالايرادات والنفقات تلك الاهتمامات التى كانت اكثر بكثير من اهتمامه بنشر التعاليم المسيحية او القيم الغربية .

ان طرح مثل هذا الموضوع القديم - فى رايي - فى هذا الوقت بالذات له اكثر من اهمية ودلالة. وربما ياتى على قمتها، ان الحوادث التى جرت في الخليج قبل نحو خمسة قرون تتكرر اليوم تقريبا ولو كانت بصورة اخرى. ومن هنا فان الدراسة الموضوعية للاستعمار البرتغالى فى الخليج تفيد أطرافا متعددة فى وطننا العربى. فالوقوف على الماضى يقدم لنا زادا دسما يغذى عقولنا فى تجنب أخطائه والتسلح بعبره .

ان اساطيل البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والانكليز والتى شكلت الموجة الثالثة للاستعمار الغربى للشرق، تعود اليوم للخليج العربى، بشكل اساطيل امريكية وانجليزية وفرنسية وغيرها. والصراعات القديمة بين الاتراك والفرس والعرب، تعود اليوم فى صراعات اقليمية، بل فى حرب طاحنة بين العراق وايران. مع وجود اكثر من عامل يطوى تحت لوائه اهل المنطقة فى

مواجهة الاخطار الاجنبية الخارجية الكبرى، والتى تتخذ احيانا صفة صليبية الى جانب اهدافها الاقتصادية الاساسية . ان عدم ايقاف الحرب بين دولتين جارتين مسلمتين مهما كانت مبرراته يصب فى النتيجة فى طاحونة اعداء الامة العربية والاسلامية على السواء .

كان الاساس الاقتصادى للاستعمار البرتغالى ينصب على عنصرين، هما جلب المواد الاولية بما فيها المعادن (الذهب والفضة واللؤلؤ) وتأمين سوق لتصريف الفائض من البضائع الاوروبية.. كل ذلك مع احتكار الموقع الجغرافى المتميز للخليج وبالتالى احتكار طرقه التجارية مع الهند شرقا وافريقيا واوربا غربا .

وهذا هو المحور الاساسى الذى انصب عليه الجهد الاساسى فى هذا البحث. ولا بد من الاشارة الى الصعوبات الجمة التى صادفت الباحث. واولها عدم توافر المصادر عن هذا الموضوع القديم. ان الدراسات القديمة وبالاخص العربية كانت تركز على الجوانب التاريخية والحربية، وتغفل تماما الجوانب الاقتصادية رغم اهميتها القصوى.. وربما يعود ذلك الى عدم ظهور علم الاقتصاد آنذاك بهذا المفهوم اليوم اولا.. وثانيا ان العوامل الدينية والمعنوية والقيمية كانت تأخذ حيزا كبيرا في وعي وادراك الاقدمين اكثر من العوامل المادية والاقتصادية.

التقـويم التاريخى للعـامل الاقتصادى :

ان تفوق الغرب الاقتصادى الحالى على الشرق لا يزيد عمره عن بضع مئات من السنين ، وهى فترة لا تكاد تبلغ الا كسرا عشريا فى التاريخ المدون للانسانية، اما تفوق اهل الشرق وبخاصة العرب فانه يرجع الى بضعة الاف من السنين قبل الميلاد. ويبرز هذا التفوق فى العصر الوسيط ابان الزخم الاسلامى، اذ تمكن العرب بهدى الدين الاسلامى الحنيف ان يكونوا امة تمتد من خليج بسكاى الى دلتا السند، وان يقربوا بين الشرق والغرب الى حد لم يكن معروفا حتىٰ ذلك الحين. وساهموا بشكل فعال فى الحركة التجارية التى امتدت الى كوريا وارخبيل الهند من ناحية وجنوب شرق افريقيا واوربا والبحر البلطيقى من ناحية اخرى [1] .

ان نصيب اوروبا في التجارة الدولية في العصر الوسيط كان دون شك متواضعا للغاية ، اذ قل سكانها وضعف انتاجها . وتقلصت حضارتها لتصبح حضارة ريفية قائمة على الاقطـاع واذا كـانت الجمـاهـير

الاوروبية لم تستهلك الا ما تنتجه في ارضها . فان الصفوة من اهل السياسة والعلم والقوة فيها كانت تشتري منتجات الترف للمساكن والملابس من الشرق . فلم تخل المساكن والحصون الاوروبية من تأثير الشرق العربي عليها سواء في المواد الاولية او الهندسة المعمارية ، كما ان السيوف الفرنسية والصقلية كانت تتفوق على نظيراتها عندما كانت تصنع على الطراز الشرقي ، ان اميرات اوروبا كن يتباهين بلباسهن الدمسقي (نسبة الى دمشق) والموسلينى (نسبة الى الموصل) . واذا اضفنا الى ذلك كله وصول العرب المسلمين الى الاندلس وبقاءهم هناك قرونا عديدة ونقلهم الحضارة الشرقية عامة والاسلامية خاصة بما فيها علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء.. الخ لادركنا كم استطاع الشرق الاسلامى العربى ان يربط اوروبا به لا سياسيا وحسب بل واقتصاديا[٢].

وليس من الصدفة ان تكون المدن الاوروبية على ساحل البحر المتوسط وبالاخص الايطالية نصف الشرقية ، التي لم تهدأ قط طيلة العصور الوسطى مثل البندقية وسالرنو وفينيسيا .. في مقدمة العوامل التي ادت الى النهضة الاقتصادية في الغرب منذ اواخر القرن العاشر الميلادي[٣] .

ان الحروب الصليبية التي شنتها اوروبا على العالم العربي الاسلامي طيلة مائتي عام ، لم تكن باهدافها المعلنة الدينية ، وانما في جوهرها ، تحويل للريع الذي ينتجه الفلاحون العرب الى رجال الاقطاع الأوروبيين تحت حجج ومزاعم دينية زائفة . وبعد هزيمة الصليبيين ، ادرك بعض رجال الفكر والسياسة الاوروبيين اعتماد الدول الاسلامية والعربية في الشرق على تجارة الهند لذا وضعوا اقتراحات وخططا معينة لتدميرها (ان مارينو سانيتو (Marino Sanuto اقترح حلفا مع (Tortary dnubia) وبناء اسطول في المحيط الهندي للسيطرة على جزره وسواحله ، في حين ناضل غليوم ادم (Gilloum Adam) من أجل بناء اربع سفن ضخمة في هرمز لتقفل البحر الاحمر من جزيرة سوقطره معتمدا على مساعدة الغرب والمسيحيين له[٤] .

ان مثل هذه الاعمال تضمن للغرب عدة فوائد في آن واحد : فأولها انها تصل الى المواد والسلع التي تحتاجها دوله من الهند والارخبيل الاندونيسي والشرق الاقصى ، دون وساطة العرب وثانيها ، تضعف العرب والمسلمين عن طريق قفل باب التجارة ومصدر الرزق الاساسي لهم ، وثالثها ، تؤمن اسواقا لتصريف منتجات الغرب الفائضة ، بعد ان بدأت بشائر نظام الانتاج الرأسمالي تحل محل نظام الانتاج الاقطاعي في أوروبا بدءاً من القرن الخامس عشر .

ان سيطرة البرتغال على المحيط الهندي والخليج العربي تندرج تحت

هذا الاطار ، ولم يكن عملا ترفيا او استكشافيا او مجرد مغامرة بعض الملاحين .

ان الاستعمار البرتغالي وهو باكورة الاستعمار في العصر الحديث كان نتيجة لتحضيرات طويلة وخطط متقنة وناضجة محكومة بظروف موضوعية .. ورغم ان التحرك الاستعماري البرتغالي الى المنطقة العربية كان هو الاخر بحجج دينية والانتقام من العرب المسلمين الذين سيطروا على شبه الجزيرة الايبيرية الا ان الهدف الاساسي للطموحات البرتغالية كان لاحكام السيطرة الاقتصادية واحتكار التجارة الشرقية .

فقبل وصول البرتغاليين كانت تجارة الهند والشرق الاقصى بيد المسلمين واغلبهم من العرب . (من جنوب وغرب الجزيرة العربية وعمان) ، وكانت الطرق التجارية (البحرية والبرية) تمتد من الهند الى هرمز واعالي الخليج العربي ووادي الرافدين وحلب ، او عبر الخليج جنوب وغربا الى عدن وجده والقاهرة وفينسيا . ان اهالي جنوب ايطاليا اشتروا التوابل من الشرق وبيروت والاسكندرية لتوزيعها في اوروبا وموانىء شمال افريقيا واكثر الارباح كانت تجنى من عملية التجارة في المحيط الهندي . وكانت ارباح السلاطين في الخليج العربي وحتى سلاطين مماليك مصر كبيرة ومضاعفة . ومن جهة قدمت التعريفات الجمركية وسائل سهله في جمع عوائد تلك الدول التي فيها موانىء بحرية او محطات لوسائط النقل البري . ومن جهة ثانية جلبت العمل للأعداد الغفيرة من الجماهير الشعبية لتعمل في التجارة والملاحة والنقل وغيرها . ومن جهة ثالثة أمنت الكثير من المواد الغذائية والملابس للعديد من المدن التي كان من الصعب العيش فيها دون تلك التجارة[٥] .

لم يقتصر الامر على سلب العرب تجارتهم عند وصول البرتغاليين الى الاراضي العربية والهند وافريقيا .. انما عملوا على تدمير الحضارة العربية والاسلامية عن طريق تجميد اشكال الانتاج (الصناعة والزراعة) السائدة آنذاك والتي كان بامكانها التطور الى مراحل راقية وصولا الى مجتمعات متقدمة بالمفهوم السائد اليوم . لقد وجد البرتغاليون انفسهم في أراض أكثر غنى من اراضيهم واستطاعوا التعرف على صناعات حرفية راقية . اكبر واهم بكثير من صناعاتهم ، بالاضافة الى ذلك انهم وجدوا ملاحين مهرة من العرب والهنود وعلى رأسهم البحار العربي المشهور (احمد بن ماجد) الذي استعان به فاسكو دي جاما ليعرفه على سواحل شرق افريقيا والمحيط الهندي ويوصله الى مدينة كلكتا[٦] .

الاستعمار البرتغالي :

لقد نجح البرتغاليون في نهاية المطاف في اكتشاف طريق بحري الى الهند يتجنب طرق القوافل القديمة بين البحر المتوسط من جهة والبحر الاحمر والخليج العربي من جهة ثانية ، وانهم كانوا يدعون بأنهم يقومون بشيء ذي اهمية بالغة بالنسبة للعالم[٧] .

لاشك ان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وبعض مناطق امريكا اللاتينية[٨] افاد البشرية ولكن اقامة الحصون والمحطات التجارية على السواحل الافريقية والعربية والاسيوية وتجنيد المرتزقة وقتل الاهالي او ارغامهم على العمل بالسخرة وتهجيرهم واصطيادهم بالقوة خارج القارة الافريقية (تجارة الرقيق) كل ذلك كان من صلب الاستعمار البرتغالي .

ان السبب الموضوعي والاساسي للاكتشافات الجغرافية - كما هو معروف تاريخيا - انغلاق الاقتصاد الاوروبي بعد سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط والبحر الاحمر وبالتالي قطع المتنفس الوحيد على الاوربيين. وكما كانت الحروب الصليبية هي المنفذ الوحيد للاقطاع (الكنسي والاجتماعي) كذلك كانت الاكتشافات - النافذة الوحيدة للاقتصاد الاوروبي وهو يتحول الى الرأسمالية على كل حال لقد اطلقت هذه الاكتشافات الجغرافية سلسلة من ردود الفعل الاقتصادية وغير الاقتصادية واحدثت آثارا تراكمية متصاعدة نتج عنها ثلاث نتائج هامة :

١ - تراكم وانتقال كميات هائلة من الذهب والفضة (رأس المال النقدى) بسبب ما فرضه المستكشفون على اهالى المناطق من اتاوات وضرائب، أو ما نهبوه بشكل مباشر من المناجم او الخزائن. وكان هذا النهب احد أهم المصادر الاساسية للتراكم البدائى لرأس المال الذى وفر الظروف المواتية لنشوء الرأسمالية كعملية اجتماعية تاريخية .

٢ - تدويل السوق : لقد حولت الاكتشافات الجغرافية السوق الاقتصادية من وطنية قومية داخلية الى عالمية، لقد حدث اختلال فى هيكل السوق بين قوى العرض المحلية المحدودة وقوى الطلب العالمية المتعاظمة.. فالطلب اصبح عالميا والعرض لا زال محليا قوميا.. وبقى هذا التناقض يتعاظم الى ان وصل الى الذروة، فكان لا بد من حدوث عمل ليحل هذا التناقض فكان نشوء الثورة الصناعية وهذا هو بالضبط سبب نشوء تلك الثورة. التى هى وليدة النظام الرأسمالى وليست خالقة له. انها شرط تاريخى لاعادة النظام الرأسمالى الى التوازن بعد ان اختل. انها حل للصراع بين المنتج والمستهلك بين الطلب (علاقات الانتاج)

والتكنيك (العرض) (قوى الانتاج) .

٣ ـ والنتيجة الثالثة والتى تخدم غرضنا بالدرجة الاولى، هى نشوء النظام الاستعمارى. وليس من قبيل الصدفة ان تظهر كلمة المستعمر فى القواميس الاجنبية منذ القرن الرابع عشر [٩] . اى على وجه التحديد فى فترة الانتقال التى سبقت قيام المشاريع الاستعمارية الكبرى للدول الغربية (البرتغال واسبانيا وفرنسا وانكلترا وهولندا). كانت الحروب الصليبية فى الواقع قد انتهت منذ عهد قريب، وكانت الاحداث تدفع نحو فترة الكشوف الجغرافية الكبرى، وتضع اوروبا وجها لوجه أمام عالم جديد يصبح مزرعة لها. ان ظاهرة الاستعمار حولت النظام الرأسمالى من نظام مستقل وطنى (يعيش فى مكانه) الى نظام تابع طفيلى يعيش على حساب وحياة الاخرين. ومن هنا وبعد ان اصبح النظام الرأسمالى عالميا فلا يمكن فصله عن مشكلة التقدم والتخلف [١٠] ان هاتين الظاهرتين لا يمكن إدراكهما على حقيقتهما دون الوقوف على ظاهرة الاستعمار .

لقد قام تصنيع اوروبا الذى شجع عليه تراكم الثروات وهو التراكم الذى يعزى فى المحل الأول الى الاستعمار علي شرطين : استيراد المواد الاولية وايجاد منافذ لتصدير فائض الانتاج. فقد كان على الاستعمار منذ تلك اللحظة ان يحل المشاكل التى يثيرها هذان الشرطان. كانت المناطق المستعمرة تقوم بتزويد المواد الاولية الضرورية للصناعات الاوروبية الناشئة والمتطورة وتستخدم فى الوقت نفسه كاسواق لفائض الانتاج الاوروبى. ولم تكتف الدول الاستعمارية بذلك بل كان لا بد من ثقافة معينة تدعم هذا التوجه مع اجراءات عملية. لكى تبرر الدول المستعمرة أعمالها البشعة ضد سكان المستعمرات، فكانت تثقف شعوبها على ان عملها هذا هو مجرد ثأر للفتوحات الاسلامية فى القرنين السابع والثامن الميلاديين ، والعرب فى رأيهم قد توسعوا فى الحد الغربى وفتحوا شبه جزيرة ايبيريا واستعمروها. وها هم اليوم (البرتغاليون) يهاجمون شواطىء الجزيرة العربية نفسها، بل ويهددون اقدس الاماكن الاسلامية (مكة المكرمة) ويخضعون الامراء العرب والمسلمين على السواء فى هرمز ومسقط وملقا [١١] .

ان مثل هذه الادعاءات لا تحتاج فى تفنيدها الى عناء كثير. فالعرب المسلمون عندما دخلوا شبه الجزيرة الأيبيرية وجنوب ووسط فرنسا، فانهم حرروا سكانها من الظلم والاضطهاد ونشروا علومهم ودينهم الحنيف، واقاموا العدل فى الارض. ولقد سار العرب المسلمون فى فتح الاندلس على مبدأ تقسيم الاقطاعيات والاراضى الزراعية بين فلاحيها الذين كانوا

محرومين من تملك الارض فى عهد (الفزيغوت). وقد ذكر المستشرق المعروف (دوزى) فى كتابه (تاريخ الاندلس) « لقد انقذ الاسلام الطبقات الدنيا من الاوروبيين العبيد واقنان الارض فى العصور الوسطى، وحررهم من سلطة الاقطاعيين الاقوياء الذين كانوا يعتبرون الفلاحين لا عبيدا لهم وحسب، بل وعبيدا للأرض» (١٢)

لقد كان الفتح الاسلامى فى الواقع ميزة وحسنة لاسبانيا والبرتغال، اذ حقق ثورة اجتماعية واقتصادية بالغة، فازال سلطة الطبقات ونقل المجتمع الاوروبى لاول مرة من مجتمع طبقى شبه عبودى (اقنان ونبلاء) الى مجتمع لا طبقى بقضائه على الامتيازات للطبقات العليا الاقطاعية وتوزيعه الاراضى على اكبر عدد ممكن من افراد الطبقات المستغلة (الاقنان). ويذكر مستشرق اخر هو (ليفى بروفاتسال) فى كتابه (اسبانيا المسلمة فى القرن العاشر). « ان الازدهار الزراعى الذى اصاب اسبانيا بعد الفتح الاسلامى يعود الى التقسيم الكبير لملكية الارض » (١٣).

اين موقف العرب والمسلمين هذا من موقف البرتغاليين عندما استعمروا بعض مناطق الخليج العربى ؟ لقد نزعوا كل سلطة من الملوك والامراء والرؤساء التقليديين اصحاب البلاد الاصليين، ووضعوا البلاد فى الموضع الذى ارادوه لها واستحوذوا على ثرواتها الطبيعية وادوات الانتاج فيها، ودمروا الصناعات التقليدية الحرفية فيها (والتى كانت ستتقدم على نظيراتها فى اوروبا والبرتغال نفسها) وحولوا الشعوب التى استعمروها الى أيد عاملة ذليلة، وفرضوا عليها قوانين ومعايير وقواعد تتفق وخصوصياتهم، واخضعوا السكان الاصليين الى عملية سيكولوجية تهدف الى تسييرهم فى اتجاه يتفق ومصالحهم (١٤). وهناك الامثلة الكثيرة على معاملة البرتغاليين الوحشية للمناطق التى استعمروها وبالاخص سكان الخليج العربى. ويكفى ان ندلل على حادثة واحدة وقعت عندما هاجم البوكرك (قائد البرتغال) بلدة خورفكان (الفجيرة) حاليا وقام بنهبها فانه قام بتقطيع اذان وانوف السكان الذين كان يطلق سراحهم.. ومثل هذا العمل كان روتينيا فى المدن العمانية الاخرى (١٥).

ان البورجوازية فى مراحل استعمارها حققت اكبر قدر من الارباح من مستعمراتها واجبرت كل الامم المستعمرة على اتخاذ اسلوبها فى الانتاج، بعد ان قوضت الاساس القومى الوطنى للصناعات المحلية واكسبت الانتاج والاستهلاك فى جميع البلدان صفة عالمية.. انها بالنهاية تقسر هذه البلدان والامم على دخول الحضارة المزعومة (١٦).

ان الاستعمار البرتغالى للخليج العربي ولافريقيا لم يخرج عن هذا الاطار، بل انه اول من طبع هذا الاسلوب بشكل عملي.. فلقد حققت المستعمرات البرتغالية امتيازا مزدوجا للبلد المركز، فقد كانت تشكل اراضي تستقبل فائض السكان وتنتج منتجات تفتقر اليها الاوطان ويمكن ان تستخدمها كمواد للتبادل. وكانت تجارة التبادل تشكل قاعدة العلاقات الاقتصادية في العالم القديم في القرن السادس عشر. وقد حلت محلها التجارة النقدية على نحو مطرد كلما حققت اوروبا غلبتها وسيادتها على العالم [١٧]. ان الحصيلة التي تقدمها المستعمرات تسهم باستمرار في تعديل الابنية الاقتصادية للوطن (الام) ولكن الاهداف تتغير فتفرض على الاستعمار اسلوبا ومجرى جديدا.

ومن هذا كله نخلص الى ان الاستعمار البرتغالي انطلاقا من دافع المنفعة والمصلحة المادية بالدرجة الاولى، ارتكز على دعامتين اقتصاديتين او اساسين هما الموارد الاقتصادية والسوق.

الموارد الاقتصادية :

في الخليج العربي يلتقي الماضي المجيد بالحاضر المشرق. وتاريخيا كان الخليج ولا يزال يتمتع بموقع استراتيجي جعله محط انظار العالم منذ الازمنة الغابرة. ومع اكتشاف النفط فيه فقد تضافرت عوامل الجيولوجيا مع عوامل الجغرافيا لتجعل منه اليوم اهم منطقة حيوية في العالم.

ولكن الخليج العربى لا يحتوى على النفط وحسب، وقديما احتوى على ثروات طبيعية هائلة وخاصة فى منطقة عمان، فالموارد الزراعية كانت مصدرا كبيرا من مصادر الاقتصاد القومي، ففي المناطق الجنوبية من الخليج حتى اواسطه (الامارات العربية حاليا) توجد مساحات معتبرة من الاراضي الخصبة والعديد من الواحات الداخلية التي تزرع بها الفاكهة، ففي منطقة الباطنية الساحلية ووادى سمايل وواحة العين وغيرها، يزرع النخيل والمانجو والرمان والجوز والخضراوات والشعير والحنطة وقصب السكر. وحتى القطن كان يزرع في سهول عمان الشمالية ويغزل وينسج ويباع محليا وعالميا [١٨]. والثروة الحيوانية بشقيها البرى (الماشية) والبحرى (الاسماك) تكاد تكون هائلة. فالغنم والماعز والجمال والابقار والجياد العربية الاصيلة . كانت متوافرة للغاية في الخليج العربي.

ان طول الشاطىء العماني وحده حوالي (١٥٠٠) كم وبمثله تقريبا بقية المناطق العربية في الخليج وامتداداته . ان الثروة السمكية حتى اليوم تزيد عن حاجة الاستهلاك المحلي حتى ان المواطنين يقومون

بتجفيف الاسماك وتصديرها وتقديمها علفا للحيوانات.

ولقد ذكر ابن بطوطة في رحلته في القرن الثامن الهجري بلاد عمان «بأنها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخيل..» [١٩]. ووصفها ياقوت بأنها «تشمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزرع» [٢٠] ولقد عاين المقدسي في القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادي ـ اقليم عمان بنفسه وقال : «والتجارات في هذا الاقليم مفيدة لأن به فرضتي الدنيا.. فاليه يخرج أدوات الصيادلة والعطر كله ـ حتى المسك ـ والزعفران والصاج (الخشب) واللؤلؤ والديباج والياقوت والابنوس والنارجيل والحديد والرصاص والخيزران والفلفل وغير ذلك [٢١].

ولقد لخص البشارى المقدسي صحار وباقي مناطق عمان وقصباتها قائلا «انها بلد عامر، آهل محسن، طيب، نزه، ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات اغنى من زبيد وصنعاء.» [٢٢].

وفي مجال التجارة، فبالاضافة الى الموقع الممتاز الذي يربط الخليج العربي افريقيا بآسيا ويجمع على شاطئه العرب وغيرهم ويعتبر نقطة الوصل بين بلاد الرافدين والشام وآسيا الصغرى مع شبه القارة الهندية والجزيرة العربية فان التاجر العربي والملاح العربي الذى وصل الى الصين وارخبيل اندونيسيا شرقا وشواطىء افريقيا غربا كان نموذجا للاهتداء به من قبل بحارة العالم وتجارها [٢٣]. وفي هذه المنطقة العربية كان لصناعة السفن شهرة عالمية خاصة ولقد ذكر ذلك الملاح العربي الشهير احمد بن ماجد في العديد من كتبه التي بقيت تدرس في المدارس والجامعات الغربية حتى زمن طويل في بداية العصر الحديث. لقد اشتهرت المدن العمانية بهذه الصناعة مثل مسقط ومطرح وصور وصحار. وكان العمانيون مهرة بدرجة فائقة.. ولم يكتفوا بمواردهم المحلية من الاخشاب لهذه الصناعة، بل ان بعضهم كان يذهب الى الهند لصنع السفن هناك[٢٤] ولقد ضم الاسطول العماني اكثر من (٤٠٠) سفينة من مختلف الاحجام والانواع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكانت هذه السفن تمخر عباب البحار والمحيطات والانهار، رابطة العالم العربي من شماله (وادى الرافدين وبلاد الشمال) الى جنوبه في اليمن وظفار ومن زنجبار الى اندونيسيا.. واليابان [٢٥].

ان صناعة الغزل والنسيج كانت متقدمة في الخليج اكثر مما كانت عليه في البرتغال نفسها، ولقد فوجىء البرتغاليون بوجود صناعات نسيجية متطورة وملابس راقية، تنم عن ذوق سليم، ومتانة فى التصنيع.. بعضها صنع محليا والبعض الاخر استورد من خارج الاقليم وبالاخص الحرائر

التي كانت تستورد من الهند وبلاد الشام [٢٦].

ولم يرق ذلك في سمع وبصر البرتغاليين، فقد عمدوا الى ابادة او محق الاسلام والتجار المسلمين. فقد ارسلوا حملات متعاقبة الى المدن الاسلامية والجوامع لحرقها او تفجيرها وهي مملوءة بالمصلين، ان المشاغل الحرفية كانت تحرق في اى مكان يلطخه البرتغاليون[٢٧]. كل ذلك كان يتم عن حقد اعمى دفين، اضافة الى الهدف الاقتصادى. وهو تدمير القاعدة الاقتصادية الوطنية وربط البلد باقتصاديات المستعمر وجعله تابعا له.. كي يسهل استمرار الاستعمار. وبهذه العملية انتقلت الممرات التجارية من مدن الخليج وحولت الى الجنوب، ولذلك فان تلك المدن التى كانت متطورة ضمرت واصبحت بائسة وفي مجال الصناعات المعدنية، فقد وجدت الاواني الفضية والنحاسية والادوات الحديدية. وآلات الحراثة، اضافة الى الصناعات الحربية كالسيوف والعجلات والمدافع والمجانيق وغيرها.

ونحن نتكلم عن الموارد الاقتصادية للخليج العربي لا بد وان نعرج على اللؤلؤ. والذى يعتبر من ارقى أنواع اللؤلؤ في العالم. لقد تعددت مغاصات اللؤلؤ في الخليج بدءا من عمان اقصى الجنوب (خليج عمان) الى الكويت في اقصى الشمال ولكن اهمها واندرها ما كان يستخرج من مغاصات صور في عمان ورأس الخيمة في الامارات.

ان البرتغاليين الذين عمدوا الى الاستيلاء تقريبا على اغلب او جميع هذه الموارد الاقتصادية وبالقوة المسلحة.. وغالبا دون تعويض، فانهم لم يعمدوا الى استغلال مغاصات اللؤلؤ مباشرة عكس مصادر الثروة الاخرى حيث ان عملية الغوص شاقة وخطرة ولذلك قاموا بفرض ضرائب باهظة على المختصين بهذه المهمة، اذ كانو يجبرون السكان على بيعها باثمان بخسة وينقلونها الى الغرب ويحصلون على ارباح وايرادات ضخمة من هذه التجارة الرائجة.

السوق:

كانت السوق الاقتصادية في الخليج العربي معتبرة جدا في الفترة ١٧٠٠ ـ ٢٣٠٠ ق. م حيث كان المركز الحضرى للبحرين صلة الوصل بين حضارة وادى الرافدين وحضارة الاندوس التي برزغت في مناطق السند والبنجاب [٢٨] ولقد لعبت التجارة دورا مهما في الخليج العربي. وكان ذلك بسبب حاجة المنطقة الى الاخشاب والمعادن غير المتوفرة والتوابل والاقمشة المصنعة محليا او المستوردة.. وكانت صيغة التبادل في هذه السوق الاقتصادية الواسعة الممتدة من اندونيسيا شرقا الى بلاد الشام وشرق افريقيا.. وجنوب اوروبا/ تمارس فى صيغة

المقايضة. ولكن مع ازدهار التجارة ادى ذلك الى استعمال النقود على نطاق واسع، واستعملت النقود المعدنية وبالاخص (الفضة والذهب) كمقياس مشترك للقيمة. ولكن مع مجيء عصر الاستعمار البرتغالي، الذى ارتبطت مقوماته بالتبادل الدولي. فلم يقم التبادل في هذه السوق على التبادل المتعادل للسلع فالجيوش البرتغالية وبعثات الاستكشاف في طبيعتها تشكل تهديدا مباشرا وفي تركيبها بما تستطيع حمله معها من المنهوبات. وكانت احيانا اداة الدفع الفضة/ بابخس الاثمان: وعلى اية حال لم تكن هناك ضرورات ايجابية لانشاء وحدات اقتصادية حقيقية او اسواق بالمعنى العلمي الصحيح لها. حيث ان ذلك يؤدي الى اقامة تبادل متعادل في ظروف تنافسية، تتقرر فيها الاثمان بشكل موضوعي.

ان الاجراءات القسرية التي استخدمتها الكولونيالية البرتغالية في الخليج العربي، قد استطاعت اقامة تبادل دولي الا انه لم ينفع الاقطار التى قامت بالسيطرة عليها. وذلك لان اية سلعة تشتريها بالاضافة الى الجزية التى تنتقضاها غصبا، كانت تدفع اثمانها مما كانت تستخلصه من دافعي الجزية والضريبة انفسهم.. ان رسائل كولومبوس الى ملكه بعد اكتشاف القارة الجديدة تشير بما لا يقبل الجدل إلى صحة ذلك.

«هؤلاء الرجال لا يحسنون استخدام السلاح.. ويكفي خمسون جنديا لاخضاعهم وحملهم على ان يفعلوا كل ما يريده المرء ان يفعلوا» [٢٩]. انها عبارات قليلة كافية للتعبير عن كل تاريخ الاستعمار القديم. ويلاحظ بيرى اندرسون ان الاستعمار البرتغالي هو (استعمار رد الفعل) ولسنا بصدد مناقشة ذلك. ولكن يؤكد صاحب الفكرة على ان الهدف الجوهرى لهذا الاستعمار من وراء الاكتشافات والرحلات هو السعي الى المنفعة، من خلال الوصول الى الهند وثرواتها الطائلة[٣٠]، ولكن طريقة هذا السعي تتغير وفقا للظروف الطارئة.

لقد حصلوا على الذهب من غينيا وحملوا به سفنهم وكنزوا هذا الذهب واستبدلوه بذهب السودان الذى اخذ يشح وينضب [٣١]. والواقع انه مع نهاية عصر الصليبيين في بلاد الشام ومصر، اخذت التجارة الاوروبية تعاني من عجز لم يكن ذهب السودان يغطي الا جزءا منه.. ان البرتغاليين لم يقتصروا على تجارة الذهب والمواد الاخرى بل اخذوا يحملون معهم العبيد[٣٢] الى لشبونة او مزارع القطن الامريكية. ان ما يسمى بتجارة العبيد يشكل وصمة عار في جبين المدنية الاوروبية الحديثة فلقد حملت اساطيل الدول الاستعمارية من افريقيا اكثر من

(٢٢) مليونا من سكانها غصبا الى نصف الكرة الغربي للعمل في المزارع او المناجم لحساب الرجل الابيض.. وقد قتل او مات اكثر من ربع هذا العدد حتى قبل وصوله اليابسة[٣٣].

كانت السلع التجارية الاساسية تصادر في اغلب الاحيان من قبل المرتزقة البرتغاليين، او تقوم باثمان بخسة للغاية، وكان الملك البرتغالي يحتكر لحسابه الخاص اللؤلؤ والتوابل والعطور والحرير. وعندما كان يتدهور سلطان الملك في ذلك الاحتكار يحول الى قواد الحاميات... ان البرتغال نظرت الى الخليج العربى من زوايا ثلاث :

أولا : موقعه الممتاز : فهو يصل بين قارتين هامتين من العالم القديم (افريقيا وآسيا) وطرفه الشمالي يقرب المسافة بين أوروبا والشرق في حالة استخدام القوافل البرية وبالفعل وصل البرتغاليون في مرحلة ما الى منطقة البصرة وشنوا غارة مفاجئة عليها في عام ١٥٥٦ والحقوا بها بعض الأضرار بالميناء كونهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليه . أما منطقة الفاو فقد استخدموها كقاعدة وميناء لهم لفترة زمنية معينة . كما ان الخليج يسيطر على طرق الملاحة المتجهة من أوروبا الى الهند والشرق الأقصى وبالعكس .

ثانيا : ان شركاتها ورحلاتها الملاحية نظرت اليه من زاوية المصالح التجارية وخاصة في القسم الشرقي منه (بلاد فارس) اذ كانت سوقا استهلاكية لتصريف المنتوجات الأوروبية وما كانت تجلبه معها الى الهند ، وبالمقابل فقد كان الخليج منطقة تصدير المواد الأولية والحرير والأخشاب والمواد الغذائية .

ثالثا : انه مصدر نقدى كبير ، سواء بما احتواه من مواد نقدية معدنية كالفضة والذهب واللؤلؤ أو بما فرضته السلطات البرتغالية من ضرائب ورسوم وأتاوات خيالية على العمل والانتاج والملاحة .. وحسب ما يرويه احد حكام هرمز من البرتغاليين في عام ١٥٥١ وكان يدعى الفارودى .. ان سلفه جمع أثناء عمله في حكم الجزيرة (١٤٠) ألف بردوسه من العملة البرتغالية ، أما هو فقد جمع ضعف هذا المبلغ [٣٤] .

ومن الشروط التى قدمها فيليب الثالث الى شاه ايران عام ١٦١٨ ما يتعلق باحتكار الحرير « ينبغي على التجار الايرانيين سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين أن ينقلوا ما يصدرونه من حرير الى هرمز او جوا. واذا ما نقلوا بضائعهم الى مكان آخر فسوف تتخذ الاجراءات الضرورية لمنعهم [٣٥] .

وأخيرا لا بد من التنويه الى ان البرتغال شأنها شأن اسبانيا طبقت

سياسة اقتصادية في داخل أراضيها عرفت باسم السياسة المعدنية أو السبائكية تقوم على الحصول على الذهب والفضة من المستعمرات بطريق مباشر (المناجم أو الضرائب) وقد انتقلت كميات كبيرة من هذه المعادن الثمينة الى داخل شبه الجزيرة الايبيريه . كما منع خروجها قدر المستطاع اعتقادا من ان وفرة هذين المعدنين يعني غنى الدولة وقوة اقتصادها وبالتالي قوتها .

والى جانب هذه السياسة المحلية الداخلية ، كانت الدول الاستعمارية بما فيها البرتغال تطبق ما يعرف باسم العهد الاستعماري . ومضمونه ان المستعمرات ليست سوى مناطق جعلت لخدمة اقتصاديات الدول الكبرى الاستعمارية . وبالذات لتسهيل الحصول على ميزان تجارى ايجابي . ويتلخص هذا العهد في الميادين الآتية : ان كافة المنتجات والعبيد التى تدخل المستعمرات لا بد ان تأتي من الدول الأم وعن طريقها وبسفن تابعة لها . أما عن المنتجات والعبيد التى تصدر من المستعمرات ، فيجب ان تذهب فقط للدول الاستعمارية (الأم) وعلى سفن تابعة لها . وكذلك لا يمكن للتجار في الدول الاستعمارية شراء منتجات المستعمرات الا من المستعمرات التابعة للدولة وأخيرا يحرم على المستعمرات (الأطراف) اقامة صناعات بها [٣٦] . ان هذا العهد وحده يفند كل نظريات التخلف التقليدية التى تعزو التخلف الى أسباب اجتماعية أو اقتصادية أو حتى عرقية أو طبيعية . ان عملية التراكم الأولى التى جرت لصالح المراكز المتقدمة على حساب الأطراف (المتخلفة) هي التى تشكل الميدان الذى تخوض فيه نظرية التراكم على الصعيد العالمي والتى بوسعها وحدها أن تفسر تخلف بعض البلدان وتقدم البعض الآخر [٣٧] .

الخاتمة :

ان البرتغاليين اكتفوا طوال قرنين من تاريخهم الاستعماري للخليج العربي بترديد مزاعمهم الكاذبة عن مسئولياتهم الحضارية والمسيحية ، في حين انهم لم يحققوا أى شيء من التقدم في الخليج ولا في مستعمراتهم التى كانت منتشرة في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية [٣٨] بل على العكس يعود تخلف منطقة الخليج العربي شأنها شأن باقي المناطق المتخلفة في العالم بالدرجة الأساس الى ممارسات الاستعمار البرتغالي والحملات الاستعمارية الغربية الأخرى ، والتى لا تزال نراها عملية معاصرة ولكن بأثواب جديدة وأساليب مختلفة .. ان

تحرير الاقتصاد من التبعية للغرب واتباع طرق وأساليب انتاج ملائمة ، واستراتيجيات تنموية خاصة ، هي الضمان الأكيد للتوجه نحو التقدم والرفاه الاقتصادي والاستقرار السياسي والتماسك الاجتماعي .

المراجع

أولا : المصادر العربية :

١ ـ بورد هنرى (راهبة البرتغال) القاهرة، شركة فن الطباعة، الجزء الأول .
٢ ـ نجاتي صدقي، «فاسكودا غاما وابن ماجد» مجلة الأديب، العدد ٤ نيسان ١٩٦٨ .
٣ ـ صوت أفريقيا الناهضة، عرض نشر بمجلة المبادىء، العدد (١ ـ ٢) السنة الرابعة، يناير، فبراير، ١٩٦٤، الرباط .
٤ ـ عبد اللطيف الخطيب ، «كامونيوس ـ (شاعر الفتوحات البرتغالية)، ترجمة نشرت بدعوة الحق، فبراير ١٩٦٤ .
٥ ـ عصام عاشور، وسائل التعاون الاقتصادى بين بلدان الخليج العربى وسائر البلدان العربية .
٦ ـ حصاد ندوة الدراسات العمانية، ستة مجلدات (١ ـ ٦) مجموع البحوث والدراسات التى قدمت فى الندوة، ذو الحجة ١٤٠٠ هـ، نوفمبر ١٩٨٠ سلطنة عمان ـ وزارة التراث القومى والثقافة، وفى هذه الندوة مالا يقل عن عشرة أبحاث .
٧ ـ سمير أمين «التراكم على الصعيد العالمى ـ «نقد نظرية التخلف»، دار ابن خلدون، بلا تاريخ .
٨ ـ لبيب شقير، تاريخ الفكر الاقتصادى، القاهرة .
٩ ـ إسماعيل صبري عبد الله، نحو نظام إقتصادى عالمى جديد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ .
١٠ـ محمد عارف الكيالي، معالم الفكر الاقتصادى الاسلامى، مجموعة محاضرات ألقيت على طلبة قسم الاقتصاد، جامعة بغداد، للأعوام ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ .
١١ـ روبرت لوبينز، «التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب»، دار النشر للجامعات المصرية، ١٩٦١، ترجمة توفيق إسكندر .
١٢ـ غي دى بوشير ، «تشريح جثة الاستعمار»، ترجمة ادوار الخراط، دار الآداب ـ بيروت ١٩٦٨ .
١٣ـ مصطفى صادق السباعي، «اشتراكية الاسلام»، دمشق ١٩٥٨، ص١٠٦ .

١٤- جيمس دفي، «الاستعمار البرتغالي في أفريقيا»، ترجمة د. شوقي حسن المراكبي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣ .

ثانيا : المصادر الانكليزية :

1. R.B. Serjeant, "The Portuguese off the South Arabian Coast," Libraire Du Liban, Beirut 1974.

2. Gamal Zakaria Kassem, "OMANI, Portuguese Conflict in the 16th and 17th Centuries, Bulletin of A.R.S.(A.L.E.C.S.O.) The Institute of Arab Research Studies, V & X, 1979/1980, Cairo.

3. John Paxton, "The Stateman's Year Book, 1970-1972, Macmillan.

4. C.R. Boxer "Portuguese Society in the Tropics, 1510-1800, University of Wisconsin Press, 1965.

5. Luella J. Hall "The U.S.A. and Morocco, 1971, 1776-1956.

6. Encyclopaedia Americana No. 27, pp, 441-442.

7. Encyclopaedia Britannica No. 1-4, pp. 882-882, 1046-1049.

8. The Middle East and North Africa in World Policies, 2nd edition, Vol. I, 1535-1914, Compiled, translated by: J.C.Hurawi, Yale University Press, 1975.

الهوامش

(١) محمد عارف الكيالى، معالم الفكر الاقتصادى الاسلامى، عصر صدر الاسلام محاضرات القيت على طلبة قسم الاقتصاد فى جامعة بغداد، كلية الادارة والاقتصاد، للأعوام ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ .

(٢) روبرت لوبينز ، التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب، ترجمة توفيق اسكندر فى كتاب معنون (بحوث في التاريخ الاقتصادى)، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٤٢ .

(٣) روبرت لوبينز ، مصدر سابق ذكره، ص ١٤٤ .

(4) R. B. Serjeant «The Portuguese Off The South Arabian Coast», Libraire du Liban, Beirut, Printed In London, 1974, PP, 3 - 4.

(5) R. B. Serjeant, «Op. Cit», P. 3

(6) Gamal Zakaria Kassem «Omani Portuguese Conflict In The 16th & 17th Centuries. Bulletin Of Arab Research Studies. Arab Leage Educational, Cultural and Scientific Organization. The Institute Of Arab Research Studies, V & X 1979/1980 Cairo, p. 143.

(٧) س . بكنهجام « بعض الملاحظات عن البرتغاليين فى عمان » حصاد ندوة الدراسات العمانية، سلطنة عمان ، وزارة التراث القومى والثقافة، المجلد السادس، ذو الحجة ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٥، ص ١٨٨ .

(٨) تؤكد بعض المصادر ان البحارة العرب اكتشفوا امريكا قبل كولومبوس بثلاثة قرون، بناء على دراسة قدمها عدة علماء امريكان من اصل صينى هم (هوى ليندلى ولنجواى ياى واخرون)... انظر.. امين سعيد «الخليج العربى فى تاريخه السياسى ونهضته الحديثة » دار الكاتب العربى، بيروت بلا تاريخ، ص ١٣ ـ ١٤ .

(٩) غى دوبوشير « تشريح جثة الاستعمار »، ترجمة ادوار الخراط، دار الاداب، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٣ ـ ١٤ .

(١٠) محمد عارف الكيالى « محاضرات فى الفكر الاقتصادى لطلبة الاقتصاد » غير

منشورة، الدراسات العليا (الماجستير) للعام الدراسى ١٩٨٧/٩٨٦ كلية الادارة والاقتصاد، جامعة بغداد .

(١١) س. بكنهجام ، مصدر سابق ذكره، ص ١٨٦ .

(١٢) مصطفى صادق السباعى « اشتراكية الاسلام »، دمشق، ١٩٥٨ ص ١٠٦ .

(١٣) ترجمة الدكتور عبدالرحمن الكواكبى، ص ١٦١ .

(١٤) غى دى بوشير ، مصدر سابق ذكره، ص ٤٣ ـ ٤٥ .

(١٥) س. يكنجهام، مصدر سابق ذكره، ص ١٨٧ .

(١٦) كارل ماركس وفرديرك انجلز « نصوص بشأن الاستعمار »، فى مصدر غى دى بوشير ، السابق الذكر، ص ٤١ .

(١٧) غي دى بوشير، مصدر سابق ذكره، ص ٣٩.

(١٨) صلاح العقاد، «دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج»، دراسة مقارنة، حصاد الدراسات العمانية، مصدر سابق ذكره، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(١٩) سعيد عاشور، «عمان حصن الأمان للعروبة والاسلام»، المجلد الاول لندوة الدراسات العمانية، مصدر سابق ذكره، ص ٢٧٠.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) احمد شلبي، «عمان في التاريخ من اقدم العصور حتى الآن»، المجلد الاول لحصاد ندوة الدراسات العمانية، مصدر سابق ذكره، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٢٤) صلاح العقاد، مصدر سابق، ص ١١٠

(٢٥) أحمد شلبي، مصدر سابق، ص ٢٩.

(٢٦) المصدر نفسه.

(27) Gamal Zakaria Kassim, Op. Cit. pp. 145 - 146.

(28) N.R. Banerjee, «The Iron Age in India», Delhi, 1965, pp. 113 - 114.

(٢٩) غي دى بوشير، مصدر سابق ذكره، ص ١٤٦.

(٣٠) بيرى اندرسون، «البرتغال ونهاية آخر عصر الاستعمار».

(٣١) غي دى بوشير، مصدر سابق، ص ١٣٥.

(٣٢) غي دى بوشير، المصدر نفسه، ص ١٣٥.

(٣٣) عبدالرسول سلمان، «معالم الفكر الاقتصادى»، بغداد ١٩٧٤، ص ٥٠، وما بعدها.

(٣٤) صلاح العقاد، مصدر سابق، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٧٩ .

(٣٦) لبيب شقير، «تاريخ الفكر الاقتصادى»، مطبعة الأنجلو المصرية ، القاهرة بلا تاريخ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨، ومن الجدير بالذكر أن العهد ليس معناه انه قائم على اتفاق

أو عقد بين المستعمرات والدول الاستعمارية، وانما هو التزام تلتزم به المستعمرات فى علاقاتها مع الدول المستعمرة والعالم الخارجى .

(٣٧) هناك تحليل واسع ورائع لكاتب عربى هو الدكتور سمير أمين حول هذا الموضوع بعنوان «التراكم على الصعيد العالمى ، نقد نظرية التخلف» دار ابن خلدون ، ترجمة حسن قبيس، والكتاب على ما يبدو كتب بلغة أجنبية (فرنسية) ولكن للأسف فإن الترجمة ليست على ما يرام .

(٣٨) جيمس دفي، «الاستعمار البرتغالى فى أفريقية» ترجمة د. شوقي حسين المراكبي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣، ص١٢ .